سمير تنير

جسد البحر

الساعة تقول السادسة . يتحرك العقربان دون ان اسمع التكتكة. كانت بعيدة ومعلقة فوق الباب الرئيسي للمكتبة . الشمس انحدرت الى افق مغموس بالزرقة ، والبحر بعيد متماسك . رفعت يدي الى جبيني . هل انحدر الى البحر ؟

عندما جلست على المقعد في الحديقة التقطت سيكارة . يدي لم ترتعش عندما اشعلت الثقاب .

خطواتي صفعت الطريق وانا انحدر الى البحر . كانت الاشعة تنسحب من أرض الشارع ببطء لتعشش في أعالي الاشجار وعلى سطوح البنايات العالية . كان الناس قد تحولوا الى ظلال نحيلة تهرب في كل الاتجاهات . الاضواء البرتقالية واضواء النيون انبثقت من المحلات والمقاهي . من العتمة كانت أصابع النور تمتد وانا أغوص في المنحدر .

جسد البحر يتلألأ والشمس تكاد تغرب . أثواب بيضاء لاشكال رائعة تغيب وتختفي مع الشفق . لاحت لي فتاة صغيرة بثوب أبيض . كانت ضئيلة للغاية . مصباح الشارع ينفض دائرة الضوء عليها . تروح وتجيء في مجال النور . أصبحت أمامي كصورة متألقة . الضوء يتناثر فيكشف ملامحها ، ويكشف وجهها أبيض ساكنا ينهمر على جانب منه شعر أسود . ذراعاها تتراخيان حولها كنبعي حليب دافيء . نظرتها طارت اليّ كدبوس مكسور لامع . تعلقت عيناي بالمصابيح التي تعلقت بالنور ، تبصق الضوء ، ترتفع مع الطريق .

الشارع خال . تناثر بعض صفار الباعة ، يصرخون ويتحدثون وينادون . أصواتهم بعيدة وخافتة كخوف مبهم امتلك طفلة نضرة . عيناي لا تفارقان الزرقة . الزرقة تذوب .

(شفة حمراء بلوزة حمراء الريح صفرت وهدرت تكت الساعة اضاء الباب غاص الباب في الظلمة النافذة سوداء انصت الى الصمت أبي لم ينظر اليّ طارت نظرته الى النافذة عادت الي الباب الاسود اضاء الغرفة لم ينظر الي عاد الي الشفة حمراء الظلام يمتلك الغرفة الباب أسود) .

أغنية الموج الشرسة تتعالى بنغم يتصاعد كحمائم مذعورة . يتراقص النور ، الاضواء تختلط وأنا أبتعد (النافذة سوداء نقاط حمراء قميصها الابيض شفاف نظرتها طارت الي قميصها أبيض شفاف احسست لمس يديها الحركة اللانهائية في صدري نبضت كأوطار ربيع قميصها لمع كثلج وهي تلقيه على الكرسي غاص القميص في هدوء عاصف احسست لمس يديها)

ظل الصبية ينبثق من دائرة النور (هدىأتتمعالشفق فراشة بيضاء رائعة بلوزتها بيضاء بان قسم من نهدها الصغير أبيض محمرا غمرتها ظلال الاشجار غمرتها ظلال الاشجار غمرتها الاغصان والاوراق فاحت الازهار بضراوة خطوتها اقتربت مع الازهار الظلمة تتحدث وتهمس يداي لمستا رائحة الازهار لمع القميص الابيض في الظلمة يداي أحستا بها امتلكت عينيها نقاط حمراء انحدرت واياها بينالاوراق يدي قبضت على شيء صغير)

ظل الصبية يغيب في دائرة الظل . عندما اقترب الصغير مني احسست بالخوف « هل تشتري انها ساعة جيدة » عندما اقترب البائع الصغير مني بثيابه الرمادية كنت أود أن أعبر الشارع

ـ « من اين لك بهـا » ؟

ـ « وجدتهـا »

نداءات الباعة لا تكف . هم لا يكفون عن الهذر . اصواتهم ضائعة مع هدير الموج « لا اريد »

خطوت على الرصيف المشجر . اختلط ظلي مع ظلال الاشجار ثم انفصل وعبر الشارع . مصابيح الشارع امتدت راكضة عبر فراغ طويل ارتفعت مع الطريق الى صخور سوداء قاتمة . كنت قد عبرت الشارع

الصبية لا تبتعد عن عيني . قميصها شفاف ابيض . البائع يركض عبر الشارع يقف امام بضاعته (غلطتي لم تكن)

ظل الصبية ينبثق من دائرة النور ويغيب . الظل يختطف صبية خضراء كسنبلة قمح .

يدي ترتفع الى جبيني ، تشده تعصره . الموت يحاصر زرقة مصلوبة . الزرقة تتلاشى . هل يموت الموج ؟ (دعني دعني ، لم أتيت اذن لم)

تجمدت امام اللانهاية الزرقاء . أصابعي ارتفعت بالسيكارة الى فمي . الهاوية زرقاء عريضة (غلطتي هل كانت) القيد خيوط عنكبوت لزجة تنهال مع وهج الضوء المعلق في المصابيح . الفراشة تحوم حول لهب منطفيء (غلطتي هل كانت غلطتي) يدي ترتفعبالسيكارة (دعني دعني انك تكاد تكاد) (الشفاه مرت كموج على نهار الجسد عندما نما الليل دقيقة فدقيقة

تسلل قمر أحمر من بين السحب ألقى بأصابعه على الغرفة السوداء القمر احمر اضاء عينين عسليتين .

ـ دعيني اقبلك اريد ان اقبلك اقبلك

ـ لا تقترب مني اكثر

ـ دعيني دعيني

ساصرخ) يدي ترتفع بالسيكارة . عندما لمست الصخـــرة لاجلس ارتجفت يدي . سقطت السيكارة في الماء الضحل . سمعت هسيسها . قبضت بيدي على قطعة حجر مروسة صغيرة . اسقطتها في الماء . طفت بعض الفقاقيع البيضاء . من خلال القاع كان ظـل القطعة يتلألأ .

(القمر وحده شاهد شفتين تنزلقان بين شفتين الظل رأى اصابع تمران على ثياب النور اضاء نجوم عينيها الظلمـة شعت مـن ذراعين حركت النسمة يدي كضوء الى وجهها الومضة عكست رعشة عينيها المطر وحده كان ينشد على السقف

آه

لا

الا تريدين

لا) الاغصان عاريه على الرصيف الشجر كانت قد اختفت مـع الشفق (النافذة اضاءت هدى غابت عن عيني حاولت ان أضمها مـن جديد غابت عن عيني لم يكن في الشرفة من احد انار الباب الاسـود الغرفة ابي لم يرفع نظره الي لم يكـن من شيء في النافذة في الجدار النور أضاء بقعة من يدي)

عادت عيناي الى الماء يقبل في دوائر تتكسر على الصخرة القذرة المغطاة باعشاب سوداء بلا صوت . كان وجه يتلاشى من امامي تلاشيا ناعما ويعود . السيارات تنساب على الطريق ، تطلق أصـــواتا متقطعة . راقبت ظلال الناس وهي تدور وتبتعد . الوجه يعود متألقا .

(القمر وحده أنشد على النافذة القى باغنية سالت ينابيـع وكؤوس وفضـة

المطر القى بالسكون وعزف لحنا ناعما في الكون

دعني دعني

لم اتيت اذن لم

الظلمة اضاءت يدا ارتفعت الى وجه الهة بصخب احمر الظلمة سالت دمعا على وجه قمر من حليب

هل تبكين هدى

لا ابكي

المطر انشد على السقف القى باغنية رتيبة كحمائم تهـدل من العتمة سالت اغنية احتضنتني كنهر ارتفعت امواجه ببكاء ذليل لحن قاتم هز نجمة كسنبلة

يدها قالت تعـال

شفتاها اهالتا شلالا من الرعشات

ايقظت كآبة جسد يرجف كزهرة زنبق وسط موج من الخضرة

ازهار قمر احمر

جداول وشوشات وضوء

رعشة شفتيها

ربيع ذراعيها

اهالا علي نهرين شاسعين من الصمت

يدها قالت تعال) عندما أطل ضوء السيارة لاذعا وهاجا ارتفعت يدي الى عيني . عندما وقفت ارتجفت ظلالي على الصخرة السوداء . الحركة في وريد الرقبة اسمعها تدق ، والحركة اللانهائية في صدري اسمعها تنتفض . اصابعي كانت قد اشعلت السيـــكارة . أصابعي لمست الوهج . احسست بحرارة كثيفة .

(ضاعت السماء مع رماد لا اخبر لـه

عندما نهضت

وازحت يديها

لا اريدك

تعال

لا احبك

تعال تعال

لا اريدك لا أريدك

النافذة وحدها شاهدت ذراعيها ترتفعان مع السكون الرمادي الى الوجه الضائع مع قمر احمر

هل تعرف تعرف

لا اعرف

انت تعرف

لا أعرف

هكذا

اسكتي

هكذا هكذا

اسكتي اسكتي)

(الضحكة انبثقت كريح فتحتها ريح مجنونة) الباعة عـــلى الرصيف لم تعد أصواتهم تحبو كحمائم خجولة . انها تصرخ وتتـدافع « هل دفعت ؟ » « تعال لم تدفع » « دفعت ربع ليرة ولم ترجع لي اي شيء » « بشرفك دفعت ؟» « دفعت » « طيب ساري ليس معـي ولا ربع ليرة ستدفع » الطريق ارتفع خاليا . الظلمة افرغت اشراقتها. المصابيح تراكضت بعيدة . النور لم يمت . الزرقة ذابت . الاصوات تتدافـع .

(رن الصوت

صوت صبية ذات عيون عسلية تصاعد مثقلا بنشوة عجيبـــة حملني الى سهوب شديدة الزرقة طيور كثيرة عبرت شوارع الدم

الضوء لم يمت

أصابع الضوء امتدت الى عنقي خيوط لذة وعبير

القمر ضوء احمر

يرحل مع صوت صبية ذات عيون عسلية الى قلب يضيع في سكون

هل تحبينني قولي أكاد أموت

أحبك

لا تكذبي

لا أكذب) الباعة الصغار يتصايحون . يهددون . الظلمة تبتلع الاصوات تغيبها . المصابيح بعيدة . أصابع كمدى قاسية اخذت تمتد الى الاجساد الضئيلة . الباعة يتعاركون . النور ينتظر . الظلمـــة لـم تنهزم بعـد .

(رن الصوت

شلال حب ونشوة زهرة اللوز يدان امتدتا الى ذراعين مفزولتين من شمس صيف لنبع يرسل نافورة بيضاء

رن الصوت

شلال حب ونشوة

يداي تمسحان وجه الهة فتية

يا حبيبتي) اصابع النور امتدت الى الوجوه . الى الصدور . الاجساد الضئيلة تحاول ان تعطي ادلة على صمودها . جسد يلقـي بآخر على الارض . على الشفة سائل بشع .

(المطر لم يكن قد كف عن نشيده حرير الجسد غاص فـي الموج ضجة الحرير لامست شعري

الشفة حمراء

البلوزة حمراء

نقاط حمراء امتلكت عينيها

شعرت بشفة ناعمة وبضربات بيانو تصعد من اعماق صمـــت مجهول تختلط مع دقات آلة لا تكف تثز الشفاه تنحدر الى نهاية عنق البيض بداية رحلة عبر ينابيع سحر وشلال يرتجف كل رعشة

حبيبتي) الشجار يبلغ مداه . الصبيان لا يزالان يتضاربان كاصحاب تار قديم والشارع خال . هدر البحر بحركته الرتيبة. النقاط حمراء . كفت اصل اليهما . الايدي حمراء . كانوا يضربون.

(نهار الجسد بدأ يتلالأ لهب شمعة بدأ يعب رضاب شفة ناعمة

النافذة وحدها شاهدت

انامل كحبات رمل سريعة تتلاعب ببلوزة حمراء كؤوس الماء توهجت فضة رائفة شاهدت اصابع تنزلق الى نهار جسد ناصع كضوء قمر خجول حنان عجيب ينبع من فم وعينين تمتلك نجوم السماء بسمة صبية عسلية العيون تحملني الى مروج زرقة ضائعة تخفق الدقات في قلب سكون يحطم امطار السماء) مصابيح الشارع ارتفعت وغابت البيوت خالية والمسبح القريب لم يبد فيه انسان . احتضنت الظلال الاشجار . الاوراق دارت مع الهواء تتحرك وتهتز . كانت خطواتي تغوص في الرماد مع عتمة الغروب . السيارات لا تزال انوارها تفتش وتبحث بين ظل وظل . الموج يغني أغنية رتيبة متوحشة . الجبال صامتة خاشعة حمراء . اهتزت المدينة بالق شاحب . الشجار يعنف ويعنف وهدير الموج لم يصمت ولم يعلن استسلامه . الاصوات تموت في ليل لم ينهزم بعد .

(زهرة الورد البيضاء سمعت صوتا يهمس
هناك
لا هنا
هناك
هنا احسن) لحظة واحدة

(كانت الموسيقى تبعث رائحة لحم اختلط بعرق اخذ يلمع على جبين وعلى يدين تتحركان كظل

زهرة الليلك سمعت موسيقى ترتفع الى ذروتها وتنشد
ظلال النافذة اضاءت خيوط يد ارتفعت الى وجه يضيع مع لهب شمعة

انفاسها تغمر انفاس لهيب
بدأ يتصعد
من أعماق بعيدة
الاريكة لامست جسدا انحدر
الى مياه امواج صاعدة
الاغصان عارية رأت وحدها
يدان تفكان ازرار رافعة نهدين
تعلقت بصدر آلهة فتية
الاشجار دارت أوراقها بندى
أخذ يلمع عرقا على
جبين جسدين
الرماد بين الرماد
بين ظل وظل
أصابع تنتقل بين ضوء وضوء
السكون تلقى بين ذراعيه
ملابس وحذاء
اختلط مع غبار
سافر من نافذة بعيدة
كالفلك دارت بلوزة حمراء
في فراغ يتوهج
بأنوار فضاء يبكي
أبيض واسود
القمر يصعد الى قمته
الصمت يبتلع جوارب حريرية
لاغنية عزفت الحانها القصية
بلا كلمات
بين ظل وظل
تشرق انوار شمس ساطعة
لجسد يتلالا
بين ضوء وضوء
يتلقف الهواء
شريطة شعر زرقاء
لغابة ليل انحدرت
على سماء جسد
ناصع البياض
كقمر من حليب
خيوط يد
فبضت خصر جسد
لوجه تهدر في شرايينه
أغنية فتيان يحرقون
غابات من القش
خيوط يد ارتفعت
الى ذراع وجه
غطته ورود شفاه
أعطت بسرعة
انهار قبل
حبيبتي
اعطت بسرعة
انهار قبل
كغابة سنابل
تلتهمها نار بعيدة

حبيبتي) الشجار اصبح وحشيا . جسد يصر على اعطاء برهان كامل على قوته . يصر اصرارا فظيعا على ان يكون هو المنتصر . زوايا الثياب تتطاير مع انهمار القبضات والايدي . والثياب رمادية وسخة . الاقدام وسخة وعارية . الموج يهدر بأغنيته الرتيبة من بين صخور حملت في اعلاها اعشاب ورود وحشية . بين الصخور على المرتفعات ارتمت ازهار ذابلة . ازهار اللوز اشرفت من البساتين على الجانب الآخر . والسيارات لا تزال ابواقها ترسل نداءاتها الشيطانية. الاصوات تتهدج . تصرخ . عجلة سيارة صرخت ووقفت . السماء ترسل نجوما شاحبة والناس من بين نجوم تتوكأ على بعضها يمرون غير مبالين ، دون ان يلحظوا الشجار او يفضوه . وقفت ثم مشيت . العنف يبلغ ذروته .

(الجواد الابيض يصهل ويركض انوار توهجت على كؤوس صفت بعناية اضاءت فمًا يرضع ازهار قمر من نبع حليب

شمس صيف مجنونة احرقت كل شيء فوق بيدرها

الجواد الابيض يركض عبر براري زرقاء) ظلي يدور مع ظلال السيارات مع دوران ابواقها . راقبت الظلال وهي تبتعد تدور . مشيت ثم وقفت .

(دالية العنب احتضنت برفق
جدار النافذة
شاهدت وحدها

شمس ليل
اخترقت قلب الفراغ
اجفان سوداء اطبقت
بياض عيون عسلية
المرآة الصغيرة
اهالت ضوء
فم ينفتح
نهر نشوة
المطر على زجاج النافذة
فضة صباح
رات اذرعة غابت
مع ظلمة قمر احمر
المطر وحده انشد على السقف
انشودة صمت
غلفت جوادا صهل وابتعد
المطر وحده كان يثرثر

يمتلك سكونا اخذ يحتضن كل شيء) اه .. اه . القمر يبرد. العتمة ابتلعت الايدي . ذراعان يتهدلان حـــول جسد الهة فتية . الايدي لا تزال تضرب بقوة . السحب تمتلك السماء . القمر يطـــل مصبوغا بالسحب السوداء . المطر يصمت تشيده على السقف .
« توقف »

قبضت يدي بسرعة وبقوة ، على ذراع الصبي ذي العيون السود « توقف » يدي تشتد قبضتها على يده . يدي الثانية احتضنت خصره باعصاب فولاذ متجمد « توقف . هل انت مجنون لكي تضرب هـــذا المسكين » المصابيح بعيدة على المنحدر . الايدي حمراء بين الاغصان العارية . كنت استطيع ان اتبين الحركة اللانهائية في صدري تفيض كموج « دعني دعني اتركني اريد ان افرجيه اتركني » . اليدان تمتدان بصخب وتشيران . وقف الآخر يضع يده على شفته ويتحســـهـــا (الجواد الابيض يركض بجنون عبر براري لا نهاية لها تخفق فـــي سمائها انوار تشرق برقة واجنحة حمائم تتكسر على حد سمـــاء ضيقة القطار يتحطم) انه يتحسس شفته . سائل مر ينحدر ويشع (ابتسمت حبيبتي بغبطة ثملة وفتحت عينيها) وجهه يعكس موج البحر الـــذي يتدفق دوائر ماء واشعة . اسند رأسه الى الشجرة (عندما فتحـــت عينيها كانت النقاط الحمراء قد تلاشت) سائل ينبثق من عينين اكلهما ذباب المدينة (ضحكت حبيبتي حتى ظننت ان انهار الخمر قـــد ملأت شرايينها) « اتركني » (عندما كف صدرها عن الاهتزاز تعلقت عيناها بالنافذة) « اتركني » كان الصبي الاخر يدق الارض بقدمه ويطلب مرة اخرى ان تطلق يداه لكي يجهز على الجسد الاخر الذي بللته نداءات غامضة واغنية سالت بصمت (ضحكت بارتباك قبلتني بسرعة) « ما هذا لاجل ربع ليرة تضربه . ربما مات . دعه دعه اوقف هذا واوقف ذاك » الحقد يغسله البحر (عندما رات النافذة كفت عن الضحك) مصابيح الشارع مرت على وجه اضاع منذ قليل انوار السماء . الغضب يغسله دمع مر يسيل الى شفة مجروحة تلعقه وتتذوقه « لا شيء .. لا شيء » يداي تراختا (رأيت مدارا من البياض حول بؤبؤ عينيها انطلقت نظراتها الي جعل قلبها ينبض بثبات حول يدي ثرثر الماء على السقف عندمـــا بدأ الليل ينمو دقيقة فدقيقة سمعت بكاءها) « لا شيء لا اعرف كيف ضربته لقد ضربني هو ايضا » الوجه الاخر كان قد اصبح ظلا اســـود يرتفع الى السماء عندما اقترب من البحر مفتشا عن سلته واغراضه . ابتعد ضئيلا ضئيلا ولم يتلاش (لم قميصها كثلج وهي تلقيه عـــلى الكرسي) العتمة تنهزم الزرقة تتلالا (النقاط الحمراء تضيع مـــع قميص وعينين غيبهما البحر) خطواتي تصعد المنحدر ، الاغصان تدور والريح كمدى تصفع الوجوه ، انا ابتعد والموج يموت .

بيروت

صيادون في شارع ضيق

رواية بقلم

جبرا ابراهيم جبرا

« صيادون في شارع ضيق » رواية من نوع آخر . فهي « رواية افكار وشخصيات » بالدرجة الاولى ، كما قال عنها المستشرق الانكليزي دنيس جونسن ديفز . ولكن الاهمية في « صيادون » متأتية من تصوير الشخصيات ومن تقديم الافكار والمواقف . والشيء الذي يجعل « صيادون » عملا ادبيا بارعا هو قـــدرة الكاتب على تكديس جميع هذه الشخصيات والافكار والمواقف في بوتقة صغيرة وجعلها تتحرك في مختلف الاتجاهات ، رغم ان واحدا من هـــذه الشخصيـــات لا يشبه الاخر شبها كامـــلا . اما كيف ينتقل الكـــاتب من فكرة الى اخرى من دون ما علاقة ظاهرة ، فذلك دليل اخـــر على براعته » .

صدر حديثا ـ منشورات دار الاداب

الدكتور عبدالواحد لؤلؤة